الفصل الثالث

تقرير في الجمعية الجغرافية

والآن لم يعد هناك حديث عن الاخفاق بل على العكس صارت كمية اللقى مدعاة للشك بين أوساط رفاقي، وأخذت الألسن الحاقدة تسمي خازاريا التي وجدت تاتاريا، ولكن الأواني والآثار القديمة بعد تجديدها وصور القبور في موطنها الأصل «Insitu» أو الطبيعي أزالت أي شك ورصدت الأموال لبعثة جديدة من دون تحديد.

والشيء الوحيد الذي أحزنني هو: أن علماء الآثار ما همهم أبداً ما بدا لي هو الأثمن - الملاحظات عن أديم الأرض فقد بدت لهم ببساطة كرواية نثرية جغرافية أما الأفكار التي تتعلق بتغيرات المناخ في الأزمنة التاريخية فهي - فانتازيا علمية - شعبية ولذلك نحن مع أ. أليكسين وضعنا تقريراً مشتركاً لقسم إثنوغرافيا (الإنثروبولوجيا الوصفية) الجمعية الجغرافية حيث المستمعون يتألفون من ممثلي الاختصاصات المختلفة.

إن عنوان التقرير يحدد طبيعة المستمعين ففي الجمعية يتواجد الناس لا بحسب مهماتهم الوظيفية وإنما هؤلاء الذين بعد أيام العمل المجهدة وفقط في الوقت الذي يعتبرون أن الموضوع ممتع وجدير بالاهتمام في الواقع. ولذلك فإن اختيار العنوان - أمر مهم للغاية ويمكن أن يحتمل السقوط قبل أن يلاقي النتيجة المرضية الأمر الذي يؤسف له دوماً بشكل خاص، وبعد شكوك طويلة قررنا تسمية التقرير هكذا: «بليوغرافيا خازاريا الفولغا وتغيرات المناخ في المراحل التاريخية» - وحققنا النجاح.

وفي قاعة مجلس الجمعية شاهدنا وفي الوقت المحدد كثيراً من العلماء[١] وقدمنا في البداية ملخصاً عن المشاهدات التي قمنا بها في الموسم الحقلي ثم طرحنا مسألة إمكانية إعادة إنشاء واسترجاع تقلبات ترطب النطاقات السهبية للقارة الأوراسية (الأوروبية - الآسيوية) بالذاكرة خلال ألفي عام وحتى أكثر ولهذا الغرض كان من الضروري ربط - شرح - مبدأ تغاير الترطب الزمني للمناطق القطبية والغابية والسهبية والمعلومات التاريخية عن انتقال الشعوب التي عاشت على أراضي الاتحاد السوفييتي وجمهورية منغوليا الشعبية مع إشراك معطيات عن تاريخ الدول المجاورة، وإن مثل هذه الإحاطة الواسعة يمكن أن تحقق فقط على أساس الطريقة التزامنية وعند ذلك كان من الممكن استخدام تغيرات مستوى بحر قزوين كمقياس فريد في نوعه يدل على اتجاه مناخ السهوب للترطب أو التجفاف.

وانطلقنا من الوضع التالي: إن السهوب الخضراء المتقاطعة مع السلاسل الجبلية الحراجية أطعمت قطعاناً هائلة من الحيوانات والشعوب الرحلية الجبارة الهونّو والتيورك والمغول الذين أوصلوا الاقتصاد الرعوي (اقتصاد تربية الماشية) إلى حد الكمال وصاروا معروفين لكل العالم وعاشوا في هذه السهوب بالذات وكانت قوة الرحل ومجدهم متناسبة طرداً مع كميات قطعانهم التي تحددها مساحة المراعي واحتياطات الأعلاف وهاتان الأخيرتان توقفتا على الأمطار الساقطة على السهوب، وأدى نقصان الهطولات إلى زحف الصحراء إلى الشمال والزيادة - جذبت التايغا[٢] إلى الجنوب وعلامة على ذلك أعاقت الثلوج السميكة الحيوانات من الحصول على عشب المراعي شتاءً مما أدى إلى الموت الجماعي للقطعان في المراعي الشتوية بسبب عدم الاستفادة من النباتات علفاً في وقت الجوائح الطبيعية أو بعدها.

وجرت أكثر من مرة محاولات تفسير حملات أتيلا وجنكيزخان[٣] المظفرة بسبب تدهور الظروف الطبيعية في السهوب ولكن تلك المحاولات لم تعط أيّ

١- الدكتور في العلوم الجغرافية أ. ف. شنيتنيكوف - الدكتور في العلوم الفيزيائية ن. أ. كوزيريف الدكتور في العلوم التاريخية أ. ب. اوكلادنيكوف - الدكتور في العلوم البيولوجية (علوم الأحياء) م. إي بروخوروف - مدير المرصد الجيوفيزيائي الرئيسي م. إي. بوديكو - مدير المعهد الجغرافي - الاقتصادي في الجامعة أ. غي. زوبكوف وكثير من مرشحي الاختصاصات المختلفة. وترأس الجلسة س. إي. رودينكو الذي تحت إشرافه في عام ١٩٤٨م كان لي شرف التنقيب في تل بازيركي الثالث.

٢- Taiga= غابة الصنوبريات السبخية - المترجم.

١- أتيلا - القائد الهوني الذي زحف الهون بقيادته إلى الغرب في القرن ٥م حتى اجتازوا غاليا - فرنسا - وحاصروا باريس واورليان ووقعت معركة شالون الفاصلة عام ٤٥١م بمشاركة الغال والرومان

نتائج، وليست حروب الرحل الظافرة والتدفق على الصين وإيران وأوروبا من قبيل المصادفات وقام بها ليس حشود من الأقوام الجائعة الباحثة عن ملجأ لها وإنما مفارز نظامية منضبطة ومدربة مستندة إلى مؤخرات غنية.

ولذلك فإن هذه الأحداث توافقت مع تحسن المناخ في السهوب، وكان سوؤه سبباً لهجرة الرحل بمجموعات صغيرة استقرت عادة عند أطراف السهوب وهذه التنقلات غير المؤثرة التي غابت عن مجال نظر المؤرخين والجغرافيين لفتت الانتباه إلى أحداث لها أهمية عالمية. ومن هنا نشأ التشابك الذي بدا عنده أن مقارنة الأحداث التاريخية مع الظواهر الطبيعية لا معنى لها ومن الحقيقة نفسها يمكننا أن نقارن بالتحديد مثالين لانتقال الشعوب الرحلية مع ترطب المنطقة السهبية من دون أيّ صعوبة والشيء نفسه ولكن بالتفكير بالطريقة العكسية يمكن استرجاع تغيرات المناخ خلال تلك الثلاثة آلاف عام التي تاريخها معروف من المصادر الكتابية. وهذا التقرب الجديد من الحقائق مؤسس على تراكيب عدة علوم: الجغرافيا وعلم المناخ والتاريخ وعلم الآثار والإثنوغرافيا ولا يمت بصلة إلى «النظرية الحتمية الجغرافية» لـ ش. مونتسكي ول. ميتشنكوفا اللذين ردا تفسير الأحداث التاريخية و «روح الشعوب» إلى العوامل الجغرافية.

ونحن نحدد فقط مرونة حدود مناطق أديمات الأرض وفقاً للتقلبات المناخية ونعتبر أن الوسط السلالي (الإثني) مؤشر يتأثر بدقة بتغيرات الأوساط الخارجية وهذا يعني الطبيعة.

وبفضل مثل هذا التقرب نجحنا بتقرير أن مجالات السهوب عملت قاعدة اقتصادية للاقتصاد الرحلي الذي تقلص تارة وازداد تارة أخرى من جديد. وسبب ذلك يكمن في الظواهر الجوية المتعلقة بدرجات فعالية (النشاط) الإشعاع الشمسي.

ثم قمنا بإعادة إنشاء تقلبات المناخ وتغيرات المستويات في الأحواض المائية الداخلية قزوين وأورال والبلخاش وحصلنا على خريطة تركيبية، أعرض القسم الأول منها (يقول المؤلف عن نفسه - المترجم) هنا لأنه يمت بصلة مباشرة للمسألة الخزرية. وطبعاً هذه ليست نص التقرير وذلك لأننا نجحنا بتدقيق وتفسير

والجرمان وانهزم اتيلا وانسحب إلى شرق نهر الراين ومات بعد سنتين وتفرق أتباعه، ومن المفارقة أن هذا القائد العنيف يعني اسمه «الأب الحنون» وهو صاحب القول المشهور «حيث يمر جوادي لا ينبت العشب» - جنكيزخان - مؤسس الإمبراطورية المغولية أشهر من أن يعرف له عدة أسماء اسمه الحقيقي تيموجين - المترجم.

الكثير خلال السنوات الخمس المنصرمة. وصمد مبدأ التقرب لتجربة الوقت ونقد اللجان وكذلك شكل العرض الذي اخترناه.

منظر تاريخي جغرافي شامل

في المرحلة ما تحت الدائرة القطبية الدافئة والجافة في سيبيريا الجنوبية تطورت الحضارات المعدنية القديمة وقد تطورت على حدود التايغا والسهوب في المرحلة ما قبل التاريخية. ولكن هجوم المرحلة الباردة وتقدم الغابة نحو الجنوب قوضا إمكاناتها الاقتصادية وأخذت حضاراتها تميل نحو الانحطاط. ومقابل هذا بالنسبة لسكان السهوب المنغولية بدا الترطب وظهور الجزيرات الغابية أخيراً وبدأ الاقتصاد السهبي الرعوي (تربية الماشية) وكذلك الصيد في مرحلة الازدهار في منتصف الألف الأولى الميلادية ولكن في الألف الثانية الميلادية توقف الترطب في المناطق الجنوبية من آسيا المركزية (الوسطى) وجفت السهوب ونضبت الينابيع وتحولت الأنهار إلى مجار جافة أما الرمال النهرية المترسبة على قيعانها فصارت في متناول الريح وتحولت إلى كثبان.

إلا أن اللقى الأثرية دلت على أن حيث الآن هي صحارى قاحلة كانت منذ ألف سنة خلت بلاداً عامرة مثل خارا - خوتا وشان - شان الأكثر قدماً الواقعة عند مجرى كونتشيداريا الجاف ليس بعيداً عن لوبنور على سبيل المثال. وأنهار سينتزيان تضيع الآن في الرمال ولكن مجاريها موجودة حتى نهر تاريم مما يدل على غزارة مياهها القديمة. أما بقايا القرى على ضفاف هذه المجاري الجافة فتعطي إمكانية تحديد تاريخ تجفاف هذه المرحلة التاريخية. ومن الواضح أن التجفاف سبقه ترطب كثيف لا يقل عنه شدة وفي وقت حديث نسبياً في القرن الأول الميلادي عندما سكن الهوتّو سهوب آسيا المركزية وليس هناك شيء أكثر خطأً من الرأي الضيق الأفق المنتشر للغاية وهو أن الهوتّو كانوا قبائل متوحشة عاشت على حساب نهب الشعوب المجاورة المسالمة المحبة للعمل. وككل الشعوب خلال القرون الماضية عانى الهونيون تطوراً معقداً كانت خلاله مراحل ازدهار سلمية وعهوداً من الحروب مراراً دفاعية وأحياناً هجومية وأشدها وطأة كانت الحروب مع إمبراطورية هان (الصين - المترجم) التي سعت لبسط سيطرتها على كل آسيا. وكان تناسب القوى ليس في صالح الهون ولكنهم استطاعوا أن يصدوا خلال ٣٠٠ عام ضغط العدو. وهذا يعني أنه كان هناك شيء ما من توازن القوى. واعتبر مؤرخ القرن الأول الميلادي المشهور سيماتسيان إن ذلك هو ظروف الحياة الرحلية.

وتكونت البداوة في آسيا المركزية (الوسطى) في الألف الأولى قبل الميلاد. وفي العصر الهوني (القرون ٣-٥م) كانت بحالة ارتقاء وظهر التقدم التقني تماماً

فحلت العربة ذات العجلات محل العربة الأولية المحمولة على قطع من جذوع الأشجار التي يمكنها أن تتحرك فقط بواسطة الثيران المكدونة (المقرونة) إليها والتشاتروف بدلاً من الأخصاص المصنوعة من لحاء الشجر (ومن هنا نشأت الكلمة الروسية شاتر، وعندنا تستخدم كلمة شادر للمعنى ذاته - المترجم) وظهر اليورتا (مسكن لرحل آسيا الوسطى) اللبادي الدافئ في البرد والبارد في الحر الواسع وينقل بسهولة. وتم تحسين نسل الخيول فإلى جانب الجواد السيبيري الصغير الجلود ربى الهونّو الجياد العالية الرشيقة الشبيهة جداً بالجياد العربية. واللباس الهوني - القفطان والسراويل الفضفاضة - اقتبسه الصينيون والرومان أما في القرن ٥م فصارت التسريحة الهونية في القسطنطينية آخر صيحة للموضة، وكان الاقتصاد الهوني مرتبطاً بالاستفادة من أديم السهوب التي تتخللها الحراج فكان ضرورياً لهم على السواء مع السهوب الجافة والجبال المكسوة بالحراج التي يمكن أن تحصل القطعان منها على غذائها في وقت الشتاء. ومن الشجرة صنعوا العربات وأضلاع اليورتا وقناة السهام وعلاوة على ذلك تعيش في الجبال نسور السهوب التي ذهب ريشها لحواشي السهام (أطرافها الخلفية) وعملت الأحراج ملجأ للقطعان في أوقات العواصف الثلجية وقدمت الحطب للرعاة في الوقت الذي يتغطى فيه الروث بالثلج (يستخدم الروث للتدفئة والأغراض الأخرى الحياتية - المترجم) وأثر وجود السلاسل الجبلية خان - غاي وخن - تياي في منغوليا بالذات في طبيعة الاقتصاد الهوني وبالأكثر على الحضارة الهونية الفريدة في نوعها.

ولكن تمازج الأديمات الموصوف لا يتوقف فقط على تكوين الأرض بل أيضاً على درجة الترطب. ففي الفترات الطويلة من التجفاف تتناقص مساحة الغابات الجبلية ومساحة السهوب على السواء ومقابل ذلك تزداد مساحة الصحارى الصخرية حيث تزول الحياة. عندئذٍ يقل السكان وتسقط قدرة الدولة الرحلية ويمكن رصد هذه الظاهرة بالذات بتتبع تاريخ الهون ففي القرون ٤-١ق.م استوطن الهون عند سفوح جبال إنشان وقدروا هذه المنطقة جداً لأن «جبال سي بغاباتها وأعشابها الرائعة تكثر فيها الطيور والوحوش». هكذا يصف هذه المنطقة جغرافيو القرن الأول الميلادي، وبكى الهون لخسارة إنشان كلما مروا بالقرب منها. وفي القرن ٢٠م كانت إنشان قد تغيرت «الأرض سهلية صحراوية بوجه عام يصادف فيها بعض التلال والشعاب: وفي الشمال مساحة كبيرة تشغلها الرمال التي تسفها الرياح. والقسم الشمالي من الهضبة عبارة عن صحراء صخرية يصادف في وسطها سلاسل جبلية غير عالية محرومة من الغطاء العشبي» ومثل هذه الاختلاف نجده في أوصاف سهوب خي - سي بين الاشان ونان شان.

ويمكن أن يكون هناك بعض الشك في تلك الأوصاف إذا لم تصحح فيها أرقام (تعداد) القطعان المستخلصة من الهون وهذه الأرقام يضطر إلى تصديقها لأن القادة الصينيين سلموا الغنائم إلى المأمورين بالحساب واستطاعوا فقط إخفاء

قسم من الغنائم ولم يبالغوا في أرقامها وعند الغارات الفاشلة على الهون عندما ينجح هؤلاء بالإدبار كانت الغنائم تعد بالآلاف من رؤوس القطعان فمثلاً عند النجاح كانت عائلتان تحصلان على مئات الآلاف وهذا كله في الأماكن التي هي عبارة عن صحراء الآن.

ومن البديهي أن مساحة المراعي كانت أراضي صالحة للزراعة منذ ألفي سنة مضت وبالتالي كانت الأديمات مغايرة لما هي عليه الآن. ولكن فضلاً عن ذلك حدث تجفاف السهوب أيضاً في القرون ٢-٣م وانعكس بشدة على شعوب الهون فضعفت دولهم وماتت. وبالطبع كان لسقوط الإمبراطورية الرحلية ما يكفي من الأسباب السياسية الخارجية الأخرى ولكنها لم تكن أكثر من كل آن (حين) ولكن حتى سنة ٩٠م احتفظ الهون بالسيادة على السهوب ومن أقوالهم المأثورة «نحن لم ننحط في الحروب الجريئة» و «في الحرب على الخيل توجد سيادتنا» وفي الوقت الذي صارت فيه السهوب جافة نفقت الأغنام وهزلت الخيول - انتهت سيادة الهون.

ولكن لنر هل تطابقت الدلائل الفيزيائية - الجغرافية الموضوعية الأخرى مع مشاهداتنا؟ ألا يوجد تفاوت بالوقت نفسه؟ لنختر لهذا الغرض بحر قزوين الذي يحد مباشرة البلاد التي تهمنا - خازاريا.

كان مستوى بحر قزوين في القرون ٢-٤م منخفضاً للغاية، وبرهنت المحاولات بواسطة تأويل الأساطير اليونانية وأخبار المؤلفين القدامى على المستوى العالي لبحر قزوين في الألف الأولى قبل الميلاد الذي لو بلغ إلى المنسوب المطلق زائد ١.٣٣م لعرض ل. س. بيرغ للنقد العادل. ودلت أبحاثنا الحقلية في عام ١٩٦٠م على أن منطقة كالميكيا ستكون مغطاة بالمياه عند المنسوب الموجب للبحر وعلى سطح التربة هناك شظايا من العصر الحجري القديم وهذا يسمح بالاستنتاج أنه منذ الألف الخامسة عشرة الأخيرة لم يزدَد مستوى قزوين إلى مثل هذا الارتفاع.

وقد قام بالأبحاث العلمية الأولى في منطقة بحر قزوين الزملاء أليكساندر ميكدونسكي والمؤرخ اريستوبول والملاح باتروكليس. وحددوا أن مستوى بحر قزوين كان في ذلك الوقت منخفضاً جداً بغض النظر عن أن مياه آمودريا قد جرت إلى بحر قزوين عبر أوزوب. وذلك واضح لأنه كان هناك شلالات عند مصب آمودريا في قزوين وبالتالي كان المنسوب المطلق للبحر أخفض بكثير مما في وقتنا الحالي.

والشيء ذاته من دون أي ظلال من الشك يوافق جوردان مؤرخ القرن السادس الميلادي مؤلف التاريخ الحاضر المشهور فهو يخبر أن هناك تانانيس (الدون - التسمية الآلانية للنهر) آخر «ينبع من جبال خرينسكي (في البامير) ويصب في بحر قزوين». وكان جوردان شخصاً مثقفاً ومطلعاً جيداً على المؤلفات الجغرافية التي لم تبق كلها إلى وقتنا الحالي ولذلك فإن آراءه جديرة

بالاعتماد عليها ما عدا واحد وهو: معلوماته عن القرن السادس الميلادي التي يمكن أن يكون قد فات أوانها والمستمدة من مؤلفات القرنين الأول والثاني الميلاديين التي تعكس على الأرجح الأوضاع السابقة وخاصة في تلك القرون ولكن هذا وذاك نافعان لنا ويمكن أن يكون تدفق المياه في بحر قزوين عن طريق الأوزوب ضئيلاً جداً وغير دائم ومياه آموداريا يمكن أن تصب في الأوزوب فقط عن طريق منخفض ساريكاميشكي وإن مساحة منخفض ساريكاميشكي مع منخفض أساكي - أودان مترامية الأطراف لدرجة أن التبخر هناك يجب أن يكون هائلاً وهذا يفسر لنا لماذا مجرى الأوزوب بأبعاده كان قادراً على إمرار لا أكثر من ١٠٠م^{٣}/ثا ومن الواضح أن هذه الكمية من المياه كانت غير كافية لرفع مستوى قزوين.

وعلى خريطة أرتاتوسفين الموضوعة في القرن الثاني قبل الميلاد مبين بوضوح وعلى ما يبدو بالضبط إلى حدٍ ما محيط بحر قزوين. ويقع شاطئه الشمالي جنوبَ خط العرض ٣٠ ً ٤٥ ˚ وهذا الخط يمر تقريباً عبر شبه جزيرة كيرتش ويتطابق مثل هذا المحيط لبحر قزوين مع المدرج الشاطئي (الموجود الآن تحت الماء) عند المنسوب المطلق ناقص ٣٦م (مع الأخذ بالحسبان أن منسوب خط الالتحام الخلفي للمدرج يزيد ارتفاعه على ارتفاع الحيد الأكثر ارتفاعاً من المدرج [يقصد المؤلف بأن ارتفاع الحيد البحري هو أكثر ارتفاعاً من حافة المدرج من جهة الماء وليس حافة المدرج من جهة البر التي هي خط الالتحام] - المترجم) وفي الواقع انصب نهر أوزوب في ذلك الوقت في بحر قزوين لأن استمراره - سرير أكتام - ظاهر حتى الآن واستكشف في قاع البحر عند المنسوب المطلق ناقص ٣٢م ولو كان هذا المجرى أكثر قدما لما كان ظل باقياً بصورة جيدة هكذا ولكان مطموراً بمواد الحت والرواسب البحرية. وفي الأوقات الأكثر تأخراً لم ينخفض بحر قزوين بهذا المقدار ولم تكن هناك ظروف للحت والتآكل .

وهكذا يمكننا أن نحدد أنه عندما كان آموداريا غزيراً نسبياً ثبت مستوى بحر قزوين في القرون ٤-٢ق.م وعند منسوب لا أعلى من ناقص ٣٦م وهذا يعني أنه بحسب المخطط البياني الذي اتخذناه حدث ترطب شديد في العصر الراهن للمنطقة الجافة والتاريخ يؤكد آراءنا فالهون مارسوا في القرن الثاني قبل الميلاد الزراعة في جنكاريا وفي الوقت نفسه تتحدث التقارير الكتابية العسكرية الصينية عن القطعان الهائلة التي رعاها الهون في ألطاي المغولية والأوسون في سميرتش. ومملكة كانغ - يوي (قانغيوي) الواقعة في القسم الشرقي من كازاخستان من تارباغاتاي حتى المجرى الأوسط لنهر سرداريا بدت في ذلك الوقت دولة غنية في تربية الماشية قادرة على تقديم ٢٠٠ ألف من الفرسان ونهر تشو المبين على خريطة ذلك الزمان ينبع من إيسيك - كول ويصب في بحيرة واسعة. وفي هذه الأيام لا تتصل إيسيك - كول مع نهر تشو

ويضيع هذا الأخير في الرمال والملاحات، وكل ذلك يتحدث عن الترطب الزائد وعن كثافة سكان تلك المناطق المرتفعة نسبياً في ذلك الزمن.

ولكن أيام هذه الحضارة كانت معدودة ففي القرن الثاني قبل الميلاد انزاح طريق مرور المنخفضات الجوية إلى الشمال وفي ذلك الوقت صارت المضائق الألبية صعبة الاجتياز بسبب تعاظم الجموديات الألبية. وكانت قبائل الكيمفر والتفتون التي عاشت حتى ذلك الوقت في أسافل الريئينا (نهر الريئين) مضطرة إلى التخلي عن بلادها بسبب الفيضانات ولاقت الموت ببطولة تحت سيوف ليجبونات ماريا[1] وحتى بداية القرن الأول الميلادي ماتت الزراعة الهونية وتقلصت تربية الماشية وظهر أن قدرة الهون محطمة.

لن نتطرق إلى تقلبات الصراع المأساوي لشعب محاط بالأعداء والأفضل أن نعير الانتباه إلى كيف استقر أحفاد الأغنياء السهبيون - لقد تفرق الشعب الهوني على أربعة فروع: سكن أحدها على ضفاف هوانهي (هوان - هي) والتلال السفحية لجبال الاشان - كانت المياه هناك غزيرة.

والآخر بقي على ضفاف سيلينغي وما وراء البايكال على حدود منطقة التايغا والثالث لجأ إلى سفوح تارباغاتاي والاتاو الجنغارية بالقرب من جداول تتغذى من ينابيع جبلية.

أما الرابع فتراجع إلى ضفاف الأورال والفولغا حيث امتزج مع الأوغريين وتحولوا إلى «الهون البيض» وانتقل هؤلاء عبر سهوب كازاخستان الحالية التي تعرضت للتجفاف ليس بحثاً عن العشب والماء وإنما تخلصاً من العدو العنيف السيانبييتسيين (المغول القدماء) واستغرقت جميع تحركاتهم من تارباغاتاي إلى الفولغا أكثر بقليل من ثلاث سنوات، ولذلك لم يتركوا في طريقهم بقايا أثرية وفي حقيقة الأمر كان ذلك جيشاً متراجعاً فقد مؤونته وجرحاه أما الضعفاء «المضعضعون» فقد لجؤوا إلى حين إلى جبال ألطاي. وفيما بعد أدهشوا آسيا مراراً بشجاعتهم وهم أنفسهم «شديدو المراس» الذين بوصولهم إلى الفولغا انفصلوا عن العدو ووضعوا بداية لشعب جديد كبير احتل نصف أوروبا في القرن ٥م - الهون البيض.

وفي مثل هذا الوقت ماذا كان في سهوب منغوليا الحالية؟ وأيّ قبائل وشعوب سكنت مكان الهون المهاجرين من سفوح خن - تاي وألطاي المغولية؟

١- الليجيون Legion - الفيلق: الوحدة الرئيسة في الجيش الروماني - المترجم.

في مصادر المعلومات القليل عن ذلك ويمكن القول بثقة - أن تلك البلاد أقفرت ولكن لا يكفي إثبات الحقيقة وإنما يجب تعليلها ولهذا الغرض يلجأ المؤرخ إلى مساعدة الجغرافيا الفيزيائية. وحددت أبحاث البليونتولوجيا[1] في آسيا الوسطى: أن عملية تجفاف السهوب كانت منقطعة بفترات من الترطب المتقاربة نسبياً وإن علم التاريخ لا يؤكد فقط هذه النتيجة وإنما يسمح أيضاً بتدقيق تاريخ الترطب المشار إليه.

وأشار الرحالة إلى أن السهب المغولي مزدحم بالسكان لدرجة متناهية وهذا يجب فهمه بمعنى أن وجود المياه يحدد تطور تربية الماشية أي إن القطعان هناك تكون على قدر ما يمكنها أن تشرب من الينابيع المتوفرة. حيث توجد غدران المياه فقط - هناك ينصب اليورتا وترعى الأغنام وإذا نضبت الينابيع - فعلى مربي الماشية إما أن يموت أو يترك بلاده الأصلية لأن التحول للري الصناعي للسهب في تلك الأوقات لم يكن ليتحقق فنياً.

وبالتالي يجب أن يتطابق عصر التجفاف مع هجرة الرحل من السهوب الوسطى إلى أطرافها.

وتلاحظ هذه الظاهرة في القرنين ٢-٣م فالهون لم يعودوا إلى الوطن وهذا يعني أنهم تنقلوا من ضفاف كيرولينا إلى ضفة هوان - هي، وواحات «الأطراف الغربية» ذبلت واستولى السيانبيون على السهب حتى تارباغاتاي ولم يسكنوا فيه وإنما انتشروا في الأطراف الجنوبية لصحراء غوبي حتى تيان - شان ويمكن إيجاد توضيح لكل واحدة من تلك الحقائق على حدة ولكن ليس لمجموعها بالتطابق الجيولوجي وحالتها الفريدة وحتى لو كان كل ذلك مصادفة ولكنها بجملتها طبيعية.

ولاحظ ل. س. بيرغ أن للبلخاش ملوحة أقل مما يجب أن يكون لبحيرات آسيا الوسطى المغلقة ورجح أن «البلخاش لم يجف أبداً وامتلأ فيما بعد بالمياه ثانية. ومنذ تلك الأوقات لم ينجح بالتملح» وتسمح معطياتنا بتأريخ جفاف الأقسام الكبرى من البلخاش في القرن ٣م، وعلى الخريطة الصينية من عهد الأسرة الثالثة (٢٢٠-٢٨٠م) يظهر في مكان البلخاش بحيرة غير كبيرة تتطابق مع مكانه الأكثر عمقاً (مع أعمق مكان فيه) ومستوى إيسيك - كول كان أخفض أيضاً.

وتناقص سكان السهوب للغاية في تلك الفترة واعتزل الأوسون في تيان - شان الجبلية وحل محلهم اليو - إيبان - أحفاد الهونّو - الذين سكنوا سفوح تارباغاتاي ولم ينحدر الكانغ - يو - وي (المانغيوي) في حين من الأحيان إلى الصفر ولم تكن هناك أيّ أسباب سياسية خارجية يمكن أن تؤدي إلى إضعاف هذه

١- البليونتولوجيا = Paleontolgy: وهو علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية - المترجم.

الشعوب وهذا يعطي أساساً للافتراض أن العملية الفيزيائية - الجغرافية لجفاف المناخ قد لعبت الدور الرئيس هنا، وفي الوقت ذاته بحسب المعلومات التي جاء بها أميان مارسيللي تحول بحر آرال إلى «مستنقع مؤكسد» وهذا يعني أنه أصبح ضحلاً للغاية.

ولكن اعتباراً من منتصف القرن الرابع الميلادي هاجر التيليون - أحفاد الاويغور - والجوجان إلى الشمال ليجدوا مكاناً للعيش. وبعد ذلك انسحب أتراك إنشان إلى هناك ولم يضيقوا عليهم قطعاً ووقعت حرب على السلطة لا على الأرض وهذا يعني أن طبيعة الصراعات نفسها التي عرفت حتى نهاية القرن ٥م هي التي تدل على نمو السكان والاقتصاد والثروة.... الخ.

إن عملية الهجرة الأولية للهاربين (الجوجان) والقبائل المشتتة (التيليون) صارت ممكنة فقط لما ظهرت مراعٍ حرة غير مشغولة وإلا لكان السكان الأصليون قد أبدوا تلك المقاومة للدخلاء التي لا يمكن أن يتم التغاضي عنها في الصين، وبالتالي يجب أن تكون مذكورة في سفر المدونات التاريخية، ولكنهم هناك (أي في المدونات) يخبرون عن الهجرة ولا كلمة عن الصدامات الحربية وهذا يعني أنها لم تكن. ويعني أن الجوجان والتيليين احتلوا أرضاً خواء، وعند الإشارة إلى توجه الرحل للاستفادة الكاملة من المراعي من الضروري افتراض أن مروجاً جديدة قد ظهرت والترطب قد حدث.

ووفقاً لنظريتنا يجب أن يتطابق تجفاف المنطقة الجافة في القرن الثالث الميلادي بالدرجة نفسها مع الترطب الحاد للمنطقة الرطبة. وللأسف أن حالة العلوم في القرن الثالث الميلادي والمجتمع ككل في ذلك الوقت لم تكن متألقة إلى حدٍ بعيد ولذلك فإن المعلومات الجغرافية الحقيقية عن البلدان الشمالية لم تبق إلا أن واقعة واحدة تؤكد وجهة نظرنا. في القرن ٣م هاجر الغوث من اسكندنافيا الجنوبية إلى الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق وحتى مصب نهر الفيسلا ثم وصلوا إلى منطقة المجرى الأوسط لنهر الدنيبر وبريبيات وانتشروا في سهوب أوروبا الشرقية التي تتخللها الحراج وبالوقت ذاته أخضعوا لهم المناطق السهبية حتى البحر الأسود وانطلاقاً من ذلك فإن الاقتصاد العيني الغوثي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بظروف أديم الأرض الشمالي الرطب، ويمكننا أن نفترض أن مناطق الأرض المأهولة بالغوثيين في القرن ٣م كانت أيضاً رطبة إلى درجة كافية ولا تختلف كثيراً عن الاسكندنافية.

وبالحقيقة نقلت في ذلك الوقت من أوروبا الشرقية عبر المرافئ اليونانية أوليفيا وخيرسون وغيرها كميات هائلة من القمح الذي تحتاجه الإمبراطورية الرومانية الشرقية وبالتالي مر طريق المنخفضات الجوية عبر القسم المركزي من أوروبا الشرقية مما يجب أن يكون قد أدى إلى ترطب حوض الفولغا وارتفاع مستوى بحر قزوين فإن صح ذلك فإنه يعني أن المنطقة الغابية قبيل ذلك عانت من مرحلة الجفاف وكان الفولغا ضحلاً

ولذلك فإن القسم الأكبر من الدلتا الحالية كان عبارة عن سهب تلي (كثير التلال) مأهول كذلك بالرحل كما من حوله، وكان المجرى الأساسي للفولغا آختوب وبوزان رافده ومن المحتمل أن هذا النهر صب في الأورال الغربي المتصل ببحر قزوين بمجرى ضيق.

وفي القرن ٢م بدا تجفاف السهب الذي وصل إلى حده الأقصى في القرن ٣م ووفقاً لذلك ازداد الترطب في المنطقة الغابية وخلال هذه المرحلة ارتفع بحر قزوين إلى المنسوب المطلق ناقص ٣٢-٣٣م، والفولغا حمل تلك الكمية من المياه التي لم يستطع سريره استيعابها في ذلك الوقت وتشكلت دلتا النموذج الحالي وتحولت السهوب الجافة إلى مروج ونمت أجمات الصفصاف والقصب الفتية وامتدت الدلتا إلى الجنوب إلى شبه جزيرة بوزاتش (مانغشلاك الشمالية) تقريباً التي منها تتفرع مجار ضيقة من الأورال الغربي وزحزح السرماثيون عن ضفاف الفولغا من قبل ألهون في القرن ٣م وكذلك لم يتوقفوا في منطقة دلتا الفولغا. وبدءاً من القرن الخامس ظهر البلغار المنتصرون وأحفاد الهون هنا ولكنهم استولوا على السهوب تاركين الدلتا من دون اهتمام وبدأ ترطب السهوب في القرن ٤م وأثر في ترتيب القوى السياسية مثل عصر التجفاف السابق ففي مكان إمبراطورية الهونّو العشائرية نشأت الخاقانية التيوركية العظمى. والتيورك شكلوا دولة أكثر اتساعاً بكثير وأقوى من الهونّو ومن سنة ٥٥٠ إلى ٥٨٠م أخضعوا السهوب لهم من سور الصين العظيم إلى الدون وضموا إلى دولتهم المدن الصغدية حتى ضفاف آمودار يا وصاروا على تماس ليس فقط مع الصين ولكن مع إيران وبيزنطة أيضاً وفي الحقيقة بدأ عهد السياسة العالمية من القرن ٦م.

واحتاجت بلاد هائلة كهذه بسكان من قبائل مختلفة إلى نظام حكومي مرن وشديد

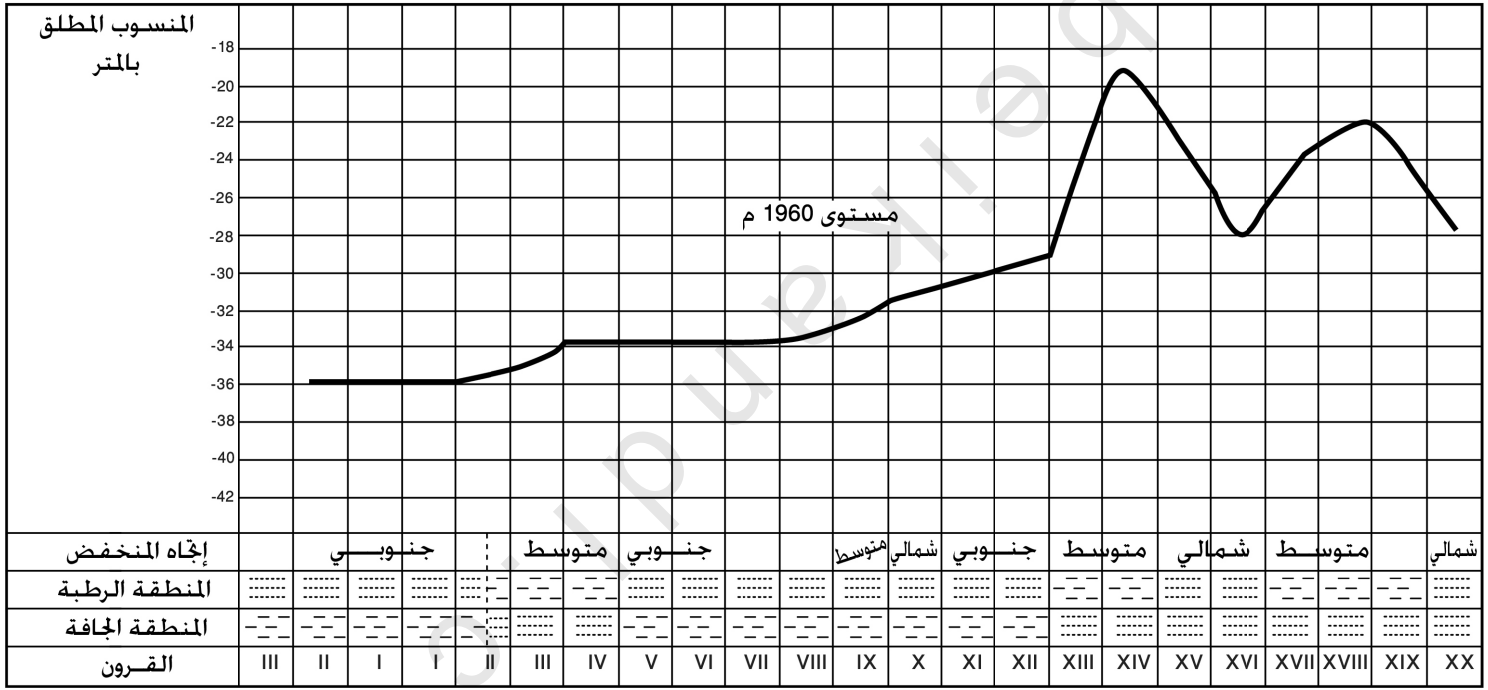

مخطط بياني تغير مستوى بحر قزوين بسبب تغير الظروف المناخية في القارة الأوراسية

وقضى النظام التيوركي المسمى «آل» باتحاد أشكال التنظيم العسكري الديمقراطي - اتحادات الأقوام الرحل مع القبائل، ونجح اتحاد الدول بالبقاء لبعض الوقت ولكن في عام ٦٠٣م انقسمت إلى خاقانية شرقية وأخرى غربية ويهمنا منهما فقط الأخيرة.

في الخاقانية الغربية كان التيورك الأصليون يشكلون الأقلية المطلقة علاوة على القبيلة الخانية وكان ينتمي إلى تلك القبيلة عدد غير كبير من الأعضاء في فرق المتطوعة (محاربين من حرس الخاقان) وعائلاتهم وكان على هذه الشرذمة من الناس السيطرة على القبائل القوية الجسورة الكثيرة العدد والمدن الصغدية الغنية المتحضرة. وكان من بين رعايا الخان التيوركي قبائل التيليسكيين والجنغاريين محبو الحرية في سهوب الأورال التي نالت فيما بعد شهرة واسعة باسم البيتشينيغ (البيتشينيغيين) والقبائل البلغارية في شمال القفقاس والبارسيليون الذين عاشوا بين التيريك والفولغا والخزر. قد يبدو غريباً كيف ساندت جميع الشعوب المعدودة السلالة الملكية التي بفضلها استمرت حتى عام ٦٥٩م. ومن البديهي أن وجود حكومة ضعيفة قد نظمتهم أكثر من الحروب الدائمة بين القبائل التي كانت محتمة لو في حالة أخرى. ولكن اتضح أن ضربة مزدوجة من الخارج كانت القاضية: حيث هاجم العرب الصغد واستولى الصينيون على حوض تاريم وجنغاريا ووقع الخان الأخير في الأسر وأفراد قبيلته نزحوا إلى خازاريا ومن ذلك الوقت نشأت الخاقانية الخزرية.

ويبدو من هذا الحديث المختصر أن السهوب أمنت في القرون ٦-٨م حياة الرحل. ولكن لم تكن هذه الاعتبارات غير المباشرة وحدها التي تسمح باعتبار العهد التيوركي عهد الترطب الزائد فمحيطات بحيرات البلخاش على خريطة القرن ٩م الصينية تعيد إلى الذاكرة مصب الحوض المتداخل مع بحيرة الآلول، وعلى الخريطة نفسها مبين أن نهري ساريس وتشو الضائعين الآن في الرمال والملاحات قد شكلا بحيرة واسعة تتطابق مع الوقرات (التجاويف) الجافة الحالية. فإذا صح التعبير ليس فقط دلتا الفولغا وإنما وادي الدون أيضاً قد تحولا إلى حدائق الفردوس وتمتع ارتقاء حضارة الشعوب الساكنة فيها بقاعدة متينة في ظروف طبيعية مثالية.

وتشكل في هذا الوقت بالذات وفي تلك الظروف شعبان قويان هما البلغار والخزر وكان الكثير من الملامح المشتركة في ثقافتهم. ولكن البلغار بقوا سهبيين مربي ماشية وصيادي ذئاب وثعالب أما الخزر سكان الوديان النهرية فكانوا مزارعين وصيادي أسماك يشبهون في المعيشة قوزاق الأعراف وتتار استراخان.

وعلاوة على ذلك كان هناك نقص في فرضياتنا. فما التغيرات التي كانت بين القرنين السابع والثامن الميلاديين؟ نحن ما عرفنا وتركنا هذا العهد تحت السؤال ولكن اعتباراً من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي كان ارتفاع مستوى بحر قزوين مسجلاً من قبل كثير من المعاصرين. فالجغرافي الإيطالي مارينو سانوتو كتب في عام

١٣٢٠م «يرتفع البحر بمقدار كف في كل عام وكثير من المدن الجميلة دمرت» وفي الحقيقة كان المرفأ الفارسي عباس كون مغموراً بالبحر في عام ١٣٠٤م وفسّر مؤلفو القرن ١٤م ارتفاع بحر قزوين الذي لم يسبق له مثيل بأن آموداريا غير مجراه وصار يصب في القزوين و «بالضرورة غمرت المياه قسماً من اليابسة لمعادلة الإيرادات والصرفيات». وكما نعرف أن تغير المستوى حدث لأسباب مغايرة تماماً، ولذلك يمكن أن يتصور المرء الظروف المناخية في بداية القرن ١٤م فأسافل مجرى الفولغا احترقت من الحرارة وفي أعاليه هطلت الأمطار: وماتت قطعان التتار من نقص العلف وتعفنت الأقماح الروسية من الجذور وتحولت السهوب إلى صحارى والغابة - إلى مستنقع حتى آخر ملاذ للناس - دلتا وحوض الفولغا كانا مغمورين بالماء وحدها تلال بائيرو ارتفعت فوق سطح البحر الضحل وكأنها أرخبيل من الجزائر الصغيرة القاحلة ووصلت المياه إلى المنسوب ناقص ١٩م، كما تدل أصداف محارات المياه العذبة على مستوى ارتفاع المياه من جهة البحر، وكذلك فخار القرون ٦-١٠م الذي عثرنا عليه في السهوب المجاورة لقزوين يشير إلى خط الشاطئ من جهة اليابسة، والاختلاف يكمن في أن الفخار لا يشير إلى الارتفاع فحسب بل إلى تاريخ ارتفاع مستوى البحر الذي لا يمكن الحصول عليه بطريق آخر.

وبدءاً من أواسط القرن السادس عشر يمكن أن نحدد مستوى قزوين بطرق القياس والربط العادية وهذا ما قام به الأكاديمي ل. س. بيرغ ودققه ب. أ. أبولوف دون إدخال التغيرات المبدئية مع ذلك.

ولكننا تابعنا التحليل لكي نختبر صحة نظرية التغير المتزامن للترطب. وحصلنا على النتائج التالية: في عام ١٥٥٦م بنى الروس استراخان على الضفة اليمنى للفولغا على بعد ١٣كم إلى الأسفل من تتارسكوي القديمة بارتفاع المتاريس التي تحيط بالمدينة وحدد ل. س. بيرغ أن مستوى البحر وقف عند المنسوب المطلق ناقص ٢٦.٥م وهذا يعني أنه انخفض خلال ٢٠٠ عام بمقدار ٧.٥م وهذا يعني أن أعالي الفولغا كانت في مرحلة التجفاف ولكن السهوب في هذا الوقت جفت بشدة للغاية وفي هذا العهد بالذات هجر السكان المدن في أسافل النهر متوافدين من كونلونيا ونان - شان وهجر رحل كل القبائل السهوب التي هي وطنهم الأصلي ولكنهم لم يخرجوا من أجل الغزو ولا لحملات النهب وإنما بغارات من أجل الموارد المائية والمراعي. وكتب جغرافيو القرن ١٧م الصينيون «قامت منغوليا كلها بالتحرك. وتفرقت العشائر والقبائل المغولية بحثاً عن الماء والمراعي الجيدة وذلك لأن قواتهم لم تعد تشكل وحدة تامة». وفي الحقيقة ضعفت جميع شعوب السهوب في ذلك الوقت ما عدا الأوبراتوف الذين استفادوا من وديان ألطاي الجبلية وتيان - شان وترباغاتاي حيث الثلاجات (الجموديات) والمياه الباطنية. ولو حاق التجفاف بالغابات والسهوب فإن ذلك يعني ترطب القطب الشمالي. وبالفعل وصل تشنسلر في عام ١٥٣٣م دون صعوبة إلى مصبات الدفينا الشمالية، وخلال القرون ١٥-١٧م كان كل الشمال مستوعباً بالمستوطنين الروس الذين استقروا على ضفاف الأنهار ولهذا السبب لم

يتحملوا عدم الراحة من استنقاع التوندرا وذهب البومور سكان سواحل شبيتسبرغ والأرض الجديدة. وأسس القوزاق مانغاريا مركز ثقل النشاط الاقتصادي دون أن يشعر به أحد ولكنه تزحزح باستمرار نحو الشمال:

وبدأت العملية العكسية في الربع الثاني من القرن ١٨م وبدأ بحر قزوين بالارتفاع من جديد وحتى عام ١٨٠٤م بلغ المنسوب ناقص ٢٢.٣م ودل هذا على أن الحد الأقصى من الأمطار سقط على حوض أعالي الفولغا بالرغم من أنه ليس شديداً بتلك الدرجة كما في القرون ٨-١٤م والآن صارت السهوب شمالي أوكرانيا والدون الأعلى والفولغا الأوسط الأكثر ملاءمة وخلال القرن التاسع عشر انخفض مستوى قزوين ببطء وذاب جليد المنطقة القطبية تدريجياً واستعمل الطريق الشمالي البحري لما جف خليج كمسمولتسا الحالي ويخطر السؤال نفسه بالبال: كيف سيجري تغير المناخ فيما بعد؟ ونحن لا يمكننا أن نتنبأ لأن كل ما عرض كان لا يزال مجرد فرضيات لم تلاقِ معارضة في الحقيقة ولكن لم تختبر حتى النهاية وبهذا أنهينا بلاغنا.

⁂

إن قراءة تقرير في اجتماع علماء لا يمكن أن تكون مؤكدة النجاح أحياناً والأكثر رهبة - هو إن كان المقرر لم ينجح بعرض فكرته بصورة واضحة بدرجة ما كي تكون مفهومة كلياً. ومن السيئ أن يمل المستمعون ويبدو لهم أن التقرير - هو تكرار معروف منذ زمن بعيد. وهناك خطر ظهور تناقض ظاهري سعياً وراء الابتكار والاستهانة بالمعايير المألوفة للأبحاث العلمية وفي الختام يحصل أن التعليل يبدو غير كافٍ وتبقى النتيجة معلقة بالفراغ.

ولذلك عندما يتقدم المرء بنظريته المبنية على مواد مختلفة وبحضور علماء من مختلف الاختصاصات يمكننا أن نتوقع أي خلاف أو شك، وتطرح الأسئلة بكثرة في التقرير. ولكن خلافاً لمخاوفنا لم يكن هناك اعتراض ضد المبدأ والأسلوب كلياً وتناولت بعض التصحيحات الفردية بعضاً من التفاصيل ولكنها لم تمس الفكرة الأساسية والشك الرئيس أثارته فرضيتنا عن التواريخ المتأخرة للغاية عن طغيان بحر قزوين. فعادة يؤرخونها بعد الفترة أو ما يجري على لسان علماء الآثار بالعصر الحجري الأعلى وتطلبت هذه القضية براهين إضافية بالفعل. ولكن وجود مسائل غير محسومة لم يؤثر في نجاح التقرير واثنوا علينا لأننا طرحناه عليهم.

وقدم التقرير للطبع وتلقى استمرار العمل بهذا المجال الموافقة.

واكتسبت المسألة الخزرية - القزوينية حق الجنسية.

خطط وفرضيات وأحلام

يفترض قبل البدء بالأعمال الحقلية دعمها بالحجج والبراهين، وأنا عرضت ثلاث مسائل: الأولى - التنقيب عن القبور الخزرية في تلال ستيبان رازين. لأن ذلك يبرهن ويقنع الجميع أنه في حال النجاح ستنكشف حضارة أثرية جديدة لا شك بأهميتها للتاريخ.

والمسألة الثانية: إن تغير مستوى قزوين خلال المراحل التاريخية يبدو أنه خرج عن حدود علماء الآثار، ولكن الفرضية حول تأثير تغير الظروف الطبيعية في الشعوب القديمة وبالأخص في الخزر بدت مثمرة وحصلت على ترخيص بتدريسها إلى جانب عملي الأساسي وبخاصة أن هذا الموضوع لا يتطلب مصاريف إضافية إذا أراد رئيس البعثة في أوقات الفراغ أن يكتب شيئاً ما في المذكرات فلصالحه وصالح العلم.

ولكني أردت الأهم! فالجيولوجيون حددوا أن هناك على شواطئ بحر قزوين عدداً مما يسمى «المصاطب الشاطئية» سويحات مضارب الأمواج وهذه المصاطب تدل على توقفات مستوى البحر، زد على ذلك أن قسماً منها مغطى بالماء. وهكذا فالمصطبة تقع عند المنسوب المطلق ناقص ٣٦م والثانية ناقص ٣٢-٣٣م والحالية ناقص ٢٨م. والأكثر علواً منها لا تهمنا بعد. وعرضت المسألة الثالثة حيث قررت توقف قزوين عند هذه المناسيب وابتكرت الطريقة التالية.

إن مدينة دربنت محمية من الشمال بسور ضخم وتمتد النهاية الغربية لهذا السور في جبال القفقاس الصعبة البلوغ، والشرقية تنزل في البحر وهي مخربة حالياً ولكن في الطقس الهادئ ترى من خلال المياه الشفافة صفائح (كتل) سور القلعة.

وكان الشيء الأهم هو أن تاريخ البناء معروف بدقة، فالسور بني بأمر من الشاه الفارسي كسرى آنوشروان (٥٦٢-٥٧١م) حيث كان رُحّل شمال القفقاس يمرون بسهولة إلى ما وراء القفقاس بالوادي ما بين منحدرات سلسلة القفقاس وشاطئ بحر قزوين وينهبون السكان الحضر للأطراف الشمالية الغربية للمملكة الفارسية وبغية صدهم اضطرت للاحتفاظ بقوات كبيرة وكان ذلك مكلفاً، ولم يعط نتائج جيدة دوماً لأن السهبيين السريعين نجحوا مراراً بالإفلات مع الغنائم من الخيالة الفارسية الثقيلة التسليح. ولهذا السبب قرر الملك الفارسي سد الوادي بسور منيع على الفرسان السهبيين غير القادرين على الاستيلاء على القلاع وفي الحقيقة بعد أن بني السور بطول ٤٠كم وبنيت عليه قلعة للحامية توقفت غارات مفارز الرحل الصغيرة، وقليلاً ما نشبت الحروب الكبيرة في ذلك الوقت.

ولكن الذي أقلقني بصورة خاصة هو النهاية التحت مائية لسور دربنت الموصوفة فقط من قبل ثلاثة من جغرافيي القرن العاشر العرب. أبو الفرج قدامه (ابن قدامه) الذي زار دربنت في عام ٩٤٨م. والاسخريوطي المؤرخة كتابته في

عام ٩٣٠م والمسعودي مؤلف كتاب «مروج الذهب» الأثر الجغرافي الأهم في القرن العاشر الميلادي. ويؤقت وجود المسعودي في دربنت إلى ٩٤٣-٩٤٧م وبهذا الشكل لدينا ثلاثة وصوفات بوقت واحد تقريباً.

وكما يحدث عادة تناقض معلومات المصادر بعضها بعضاً. فقدامة يكتب أن آنوشروان بنى مكسراً (مرطماً) للأمواج من كتل من الحجارة والرصاص[1] وعليها استمر السور الذي توغل في البحر لثلاثة أميال عربية وهذا يعني نحو ٥كم.

المسعودي يحدد طول قطعة السور البحرية فقط بميل واحد. ويصف فن البناء على خلاف ذلك وحسب قوله حملت الحجارة على قِرَبٍ وأنزلت إلى القاع وبعد ذلك قطع الغطاسون القِرَب بالسكاكين وانتشلت بالعكس لكي تدخل في الخدمة من جديد. وبالنسبة لذلك من غير المفهوم تماماً كيف يمكن استعمال القِرَب المبقورة ولماذا حمّلوها الحجارة عندما أنزلوا بسهولة الحجارة في المكان.

والاسخريوطي يكتب أنه «بين البحر والمفازة بني سوران على محاذاة البحر والحجر ما بينهما مرصوص وضيق والمدخل إلى المرفأ معمول بشكل متعرج وعند مدخل المرفأ مدت سلسلة بحيث لا تستطيع السفينة الدخول إلى المرفأ والخروج منه من دون إذن». وماذا عن هذا السور؟ فعلى خريطة دربنت مبين سوران يحدان المدينة القديمة من الشمال ومن الجنوب ولكنهما يمتدان عمودياً على البحر ويبعد الواحد منهما عن الآخر نصف كيلومتر تقريباً.

وقصارى القول إن جميع الأوصاف غير مقبولة إلى حد ما بحيث لا يمكن اتخاذها قاعدة لأي اعتبار. وكان من الضروري البحث عن السور نفسه وتحديد أيّ أعماق كانت حوله وقت بنائه. وتوكلت على ما تيسر لي وسألت م. إ. ارتامونوف أن يخصص مبلغاً إضافياً للآثار تحت الماء. أما لأعمال التنقيب فألحق بالبعثة المرشح في العلوم التاريخية ز. أ. لفوف.

وهكذا نظمت البعثة التي منها يمكن توقع إما نجاح هائل وإما فشل ذريع للغاية، أما عن ما حصل في دربنت ودلتا الفولغا فسنتكلم عنه فيما بعد ليس بترتيب زمني وإنما بفصول منفصلة.

١- قصد القوامط (المشابك) الرصاصية لصفائح التلبيس.